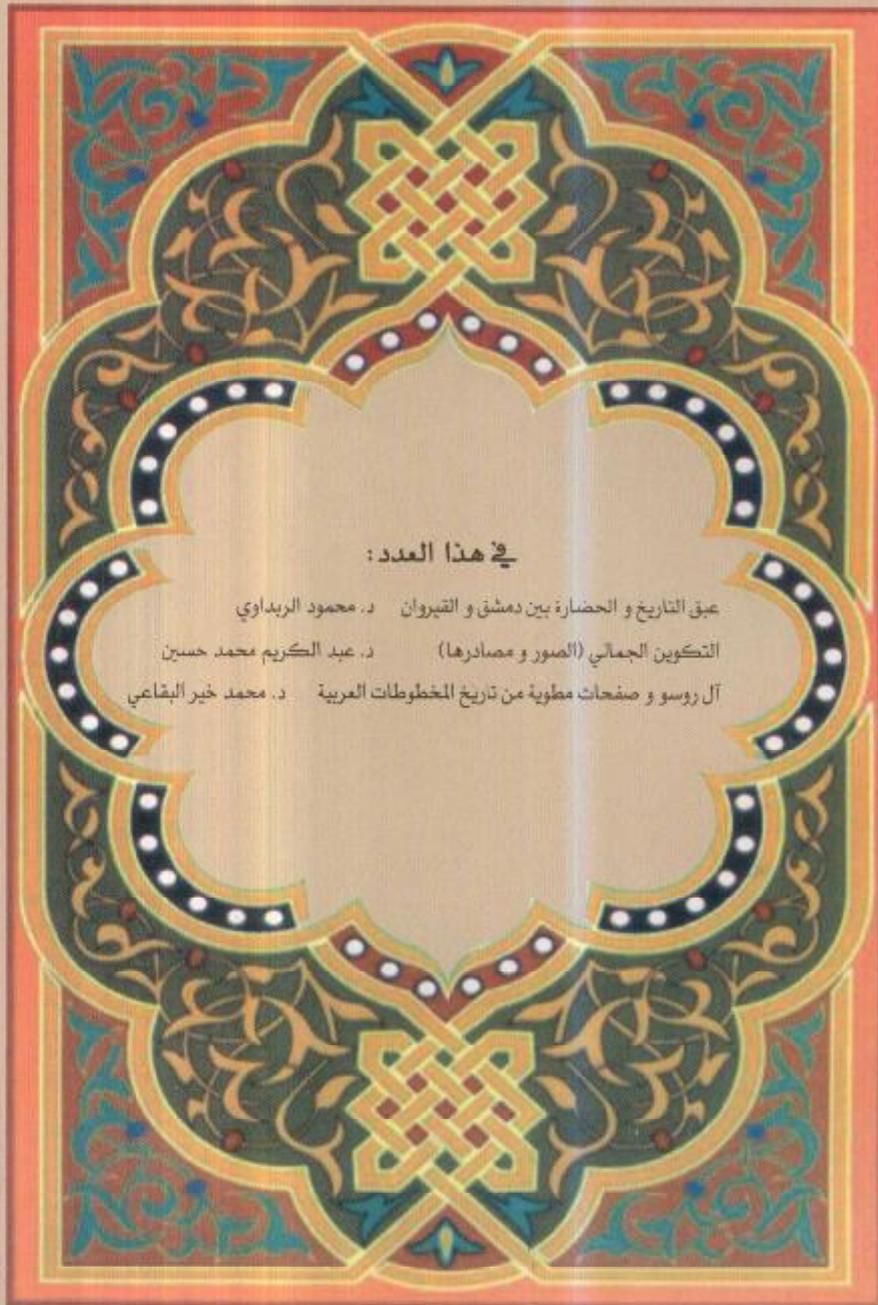


التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب دمشق



في هذا العدد:

عشق التاريخ و الحضارة بين دمشق و القيروان د. محمود الريدائي
التكوين الجمالي (الصور و مصادرها) د. عبد الكريم محمد حسين
آل روسو و صفحات مطوية من تاريخ المخطوطات العربية د. محمد خير البقاعي

ص ١١٤

.. المحتوى ..

- ١ الافتتاحية: عبق التاريخ والحضارة بين دمشق والقيروان د. محمود الربداوي ٧
- إسلاميات**
- ٢ حجية القراءات القرآنية وعلاقتها بالزيادة على النص وقول الصحابي خير الدين سيب ١٩
- ٣ روضتنا اللغة والشعر في «الجامع لأحكام القرآن» سورة البقرة تحديداً د. ياسين الأيوبي ٣٩
- لغويات**
- ٤ إدغام التاء في الأصوات المقاربة في صيغ (تَفَعَّلَ وتفاعَلَ وتَفَعَّلَ) د. عبد الناصر إسماعيل عساف ٦٩
- ٥ ظاهرة الإتياع في العربية - دراسة تحليلية أحمد عبد الرحمن سالم بالخير ١٠١
- النقد**
- ٦ التكوين الجمالي (الصور ومصادرها) في قصيدة (قذى بعينك) للخنساء د. عبد الكريم محمد حسين ١٢٧
- مخطوطات**
- ٧ آل روسو وصفحات مطوية من تاريخ المخطوطات العربية أ. د. محمد خير البقاعي ١٦٥
- لسانيات**
- ٨ فاعلية التلقي عند عبد القاهر الجرجاني د. ابتسام أحمد حمدان ١٨٩
- البلاغة**
- ٩ الإسناد في نمطية: النحوي والبلاغي يوسف وسطاني ٢٠٧
- أعلام صحافية**
- ١٠ حسن الرزق... ومجلة الإنسانية د. سعد الدين كليب ٢٢٥

أعلام تراثيون

- ٢٤١ محمود الأرنؤوط العلامة حاجي خليفة، ترجمته بقلمه وتعريف بأهم آثاره بمناسبة مرور أربع مئة عام على ولادته ١١

مستشرقون

- ٢٦١ د. كارين صادر دمشق في عيون الرحالة الفرنسيين ١٢

مراجعات

- ٢٨٣ د. حمدي إبراهيم المارد وقفة مع أغلاط التحقيق في «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين» ١٣

نصوص محققة

- ٢٩٣ ياسين محمود الخطيب كتاب الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى ١٤

دراسات

- ٣٠٧ محمد قرانيا الخاتمة الحكائية في الحكايات الشعبية وقصص الأطفال في سورية ١٥
- ٣١٧ رئيس التحرير أخبار التراث: ماذا بقي من تراثيات العواصم العربية والإسلامية في بلاد الشام (حلب - دمشق - القدس) ١٦

الإسناد في نمطيه: النحوي والبلاغي

يوسف وسطاني

U ————— u

المقدمة:

من المسلم به في علوم اللسان أنّ لكلّ لغة بشرية نظامها الخاص المتواضع عليه، يؤكده ذلك التواصل اللغوي المعتمد في جميع مجالات الحياة، بين أفراد الجماعة اللغوية. واللغة العربية كسائر اللغات تخضع لنظام ذي مستويات معروفة من صوت يُدرس مفرداً ومركباً على مستويات عدّة من أجل معرفة طبيعته ومخرجه ووظيفته، ومن حرف يهتم ببنية الكلمة في جميع تقلباتها، وهو المدخل الضروري للدراسة التركيبية النحوية، إلى المستوى الدلالي الذي يبحث عن المعنى في جميع صورته.

ولما كان الكلام يتألف من جمل، فإنّ الوحدة الكلامية هي الجملة التي يُعوّل عليها في النظام التركيبي للكلام، الذي يجب أن يفيد معنى مستقلاً يحسن السكوت عليه. ومعلوم أيضاً أنّ ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة في مجال الدراسات اللغوية من تصانيف لوظائف اللغة، يتجلى في وظيفة الاتصال والتواصل في شتى مواقف الحياة، وهذا وذلك — يقتضي أول ما يقتضي — توظيفاً متنوعاً في وسائل الاتصال والتواصل: وظائف الخطاب، منطوقاً أو مدوناً، ونعني بالوسائل تنوع أساليب الكلام بحسب قدرات (وكفاية) المرسل الباث للخطاب، ودرجات التلقي لدى المخاطب في فهم شفرة التخاطب والاتصال، وفقاً لمقتضيات مقام الكلام وسياقاته Contexte de situation، ومن هنا قد ترقى لغة التواصل إلى مستوى ليست فقط للتبليغ — وإن كان أول وظائفها — وإنما لما يسمى

بـ«الإبلاغية» في التواصل والتي تعني درجة معينة من التأثير في المتلقي بوسائل تعبيرية تستولي على الألباب، فتحقق بذلك غايتها في تبني المخاطب لمضمون الخطاب، كما قد تقف عند حد معين القصد منه إيصال فكرة أو معنى معين بأسلوب بسيط لا يثير كوامن النفس ولا يؤثر فيها، والذي لا ريب فيه أنّ كلا النمطين من التعبير، يعتمد على أهمّ قرينة في التراكيب اللغوية: الإسناد، والذي يعرضه هذا المقال ومن خلال العناصر التالية:

- ١ - الإسناد في النحو (صورة نمطية).
- ٢ - الإسناد في البلاغة (صورة فنية).
- ٣ - بعض صور الإسناد في صورته الفنية.
- ٤ - خاتمة.

١ - الإسناد في النحو و(معايير النحو):

حظي هذا المصطلح اللساني باهتمام النحاة قديماً وحديثاً، فهما هو إمامهم «سبويه» يفرد له باباً في كتابه قائلاً: «هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منهما بذا»^(١)، فالإسناد من خلال هذا التعريف قرينة صميمة وعلاقة معنوية تركيبية تلازمية، تفيد تحديد المعنى النحوي في تركيب معين يعتمد عليها المتكلم في تشكيل كلامه وصوغه وفقاً لمقتضيات حاجاته ووصولاً لغاياته التواصلية التي تستند إلى مجموعة من الدلائل والمؤشرات التركيبية.

فالإسناد إذن ربط معنوي بين ركني الجملة التي هي في الواقع تركيب يضم عنصرين أساسيين تربطهما هذه العلاقة، وتتمثل في تلك الوحدة النحوية الصغرى^(٢)، المستعملة في التعبير عما لا يمكن أن تؤدي معناه اللفظة المفردة، على أن تؤدي هذه «الوحدة اللسانية» معنى مفيداً يحسن السكوت عليه. فأما ركننا الإسناد فيتجلى في المبتدأ والخبر والفعل وفاعله أو نائب فاعله^(٣)، فالإسناد إذا يقوم على: مسند ومسند إليه، ولا يعني ذلك مطلق التركيب بل تركيب الكلمة مع الكلمة إذا كان لإحدهما تعلق بالأخرى على السبيل الذي يحسن به موقع الخبر وتمام الفائدة^(٤).

على أنّ التركيب الإسنادي، أو الجملة ذات المعنى المفيد التي يتناولها هذا المقال على نمطين: نحوي، وبلاغي، والثاني هو الذي يكون فيه الإسناد مقصوداً لذاته، لوظيفته الإبلاغية

(١) الكتاب/تح: عبد السلام هارون/دار الجيل/ط١، ١٩٩١/ص: ٢٣/٠١.

(٢) مبادئ اللسانيات/أحمد محمد قدور/دار الفكر دمشق - دار الفكر المعاصر - بيروت/ط١/١٩٩٦/ص: ٢٣٩.

(٣) الكتاب/سبويه/ص: ٢٣/٠١، واللغة العربية معناها ومبناها/تمام حسان/عالم الكتب/القاهرة/ط٣ - ١٩٩٨/ص: ١٩٢.

(٤) شرح المفصل/ابن يعيش/موفق الدين يعيش بن علي/مكتبة المتنبّي/القاهرة - ط١/ص: ٢٠/٠١.

تحديداً، وذلك يعني تضام عنصرَي الإسناد^(١)، مهما كانت طبيعتهما مذكورين لا يُحذفان إلا إذا دلت على ذلك الحذف قرينة حالية أو مقالية، لأنهما أساسيان في الجملة، المشار إليها فيما تقدم، وهي مرتكز الدراسات اللسانية الحديثة، ومجال تحليل الجملة قد أثبت أهمية المعنى المعجمي والمعنى الوظيفي في التعويل على المعنى، واستقامة الشكل النمطي المحدد، وكل ذلك بلا ريب وفق مقتضيات المنهج الوصفي التحليلي لعناصر أي تركيب إسنادي للغة، التي تبقى وظيفتها الأساسية هي التواصل. ولا يخفى ما لعملية الإسناد من أهمية في هذا السياق لأنها قائمة على تعلق الكلم بعضه ببعض، بما تستلزمه حاجات المتخاطبين في شتى مناحي التواصل، وتلك بلا ريب عملية بالغة الدقة والتعقيد سموًا وانخفاضًا، بحسب الكفايات والمواضيع المعبر عنها، بصورتين: نحوية وبلاغية.

والنحو العربي بوجه خاص - بأبوابه - مازال يساير مقتضيات الدراسات اللسانية الحديثة، ويقف معاً جنباً إلى جنب، فقد مرّ بنا تعريف سيبويه للإسناد ثمّ نحا نحوه من جاء بعده، وعدّوه النواة الأساسية والأصل في كل تعبير، وتمثّل ذلك في بعض النظريات اللسانية الشهيرة: الوظيفية عند الكلام عن مبادئ التحليل التركيبي إذ جاء بشأنها: «إنّ الركن الإسنادي Le syntagme prédicatif هو النواة التي يُبنى عليها الملفوظ، وتعدّ العناصر اللسانية روابطها به بطريقة مباشرة أو غير مباشرة: إنّ كل ما يضاف إلى النواة الإسنادية هو من الناحية التركيبية إلحاق Expansion.. ومفهوم الإلحاق هنا يضارع مفهوم النحاة العرب للفضلة... أي كل ما يضاف إلى العُمدَة في الكلام: المسند والمسند إليه^(٢)».

وإذا كان نحائنا الأوائل لم يضعوا تحديداً دقيقاً لأشكال الجملة التي هي مناط عملية الإسناد، لأنها لم تكن نقطة انطلاق في دراساتهم، إلا أنّ تناولهم لمختلف أبواب النحو التي تمثّل الوظائف النحوية المتعددة، يوحى بتصور ذهني تدور في إطاره الجملة العربية نتيجة لنشاط استقرائي تحليلي، ومن هذا الأساس المنهجي، تشكلت مبادئ وأصول المنهج النحوي، أو ما يعرف بالنظرية النحوية العربية، والتي قامت على بعض المفاهيم الاصطلاحية المتعلقة بالصورة النمطية في التركيب الإسنادي، أو ما يسمى بأصول النحو أو أدلة النحو^(٣)، والتي يمكن الإشارة إلى بعض مصطلحاتها التي منها:

أ - التأويل:

وهو أصل هام من هذه الأصول، لأنه يتعلق أساساً بالتقدير النحوي، واعتمده النحاة كوسيلة أساسية للوصول إلى المعنى التركيبي (الإسنادي)، ذلك أنّ منتج الخطاب (المتكلم)

(١) العلاقة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث/محمد حماسة عبد اللطيف/دار الفكر العربي - القاهرة/د ط د ت/ص: ٧٨.

(٢) مباحث في اللسانيات/أحمد حساني/ديوان المطبوعات الجامعية/الجزائر - ١٩٩٩/ص: ١١٥ - ١١٦.

(٣) في أدلة النحو/عفاف حسنين/المكتبة الأكاديمية/القاهرة/ط ١ - ١٩٩٦/ص: ١١.

كثيراً ما يلجأ إلى تقدير أحد جزئي الكلام، إذا تعذر عليه وجوده، ويكون ذلك المقدّر مناسباً للمعنى الحاصل، ويلاحظ أنّ عملية التقدير عند نحاة العربية، والتي يفرضها تأويل الكلام، تشبه في جوهرها النظرية التحويلية في اللسانيات الغربية، فكلاهما يصدر عن أساس عقلي، والبنية العميقة عند التحويليين - هي غالباً - الأصل المقدّر عند النحويين القدماء^(١)، ومظاهر التقدير في عملية الإسناد تتجلى بالخصوص في حالات: الحذف والإستتار في الطرفين، ومن المحدثين من رأى في تقدير الإسناد في بعض التراكيب الكلامية تكلفاً وتشويهاً للبنية اللغوية، ومردّد ذلك إلى حيل وأساليب التخريج الإعرابي، وفي ذلك يقول تمام حسان: «لقد تعلقت الإباحة وعدمها بقواعد معيارية تفرض نفسها على الاستعمال وعلى المسموع^(٢)...»، وبمراعاة قرينة الإسناد قسّمت الجملة العربية حديثاً إلى إسنادية وغير إسنادية^(٣)، والأولى ما توفر فيها الإسناد، وأمّا الثانية فمثل جملة الخالفة، والجملة التعجبية، والمدح والذمّ، والتحذير والإغراء، والنداء وغيرها...

ب - القياس:

هو أصل أو دليل من أدلة النحو احتقى به النحاة كثيراً لأنّه في الاصطلاح ربط الأصل بالفرع بجامع، وآلية من آليات التأسيس النحوي، ويقوم على أربعة أركان: أصل وفرع وعلّة وحكم^(٤)، ومثال ذلك القياس في الدلالة على رفع مالم يسمّ فاعله (نائب الفاعل) إذ نعل ذلك: إسم أسند الفعل إليه مقدماً عليه، فاقترضى الرفع قياساً على الفاعل، ومن ثمّة فالأصل هو الفاعل (المقيس عليه) والفرع: نائب الفاعل (المقيس) والعلّة الجامعة هي الإسناد، وأمّا الحكم فهو الرفع. ولعل ما يشير إلى مدى اهتمام نحائنا الأوائل بالإسناد في القياس كوسيلة تأصيلية ما جعلهم يقسّمون الكلمة في العربية ثلاثة أقسام: اسم وفعل، وحرف لأنّ الكلمة إما أن تكون ركناً للإسناد أو لا^(٥)، أي الاسم والفعل، والأول يعرفه ابن مالك بقوله:

بِالْجَرِّ وَالتَّوْبِينِ وَالنَّدَا وَأَلْ وَمُسْنَدٌ لِلْأَسْمِ تَمْيِيزُ حَصَلْ

وذلك يعني أنّ الاسم يكون مسنداً ومسنداً إليه، في حين لا يكون الفعل إلا مسنداً، وأمّا الحرف فلا يتضح معناه بجلاء، إلا إذا ركّب مع غيره، ونتج عن تلك الجهود الكبيرة في

(١) ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي/ظاهر سليمان حمودة/الإسكندرية/ط - ١٩٩٩/ص: ١١٥.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها/عالم الكتب/ط ٣ - ١٩٩٨/ص: ١٣.

(٣) العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث/محمد حماسة عبد اللطيف/دار الفكر العربي/القاهرة/ط ١٩٨٣/ص: ٣٣.

(٤) الإقتراح في علم أصول النحو/السيوطي/محمد حسين محمد إسماعيل الشافعي/ط ١/دار الكتب العلمية/بيروت/١٩٩٨/ص: ٦٠.

(٥) شرح ألفية ابن مالك/ ابن الناظم/ ت: عبد الحميد السيد محمد/ دار الجيل/ بيروت/ د. ط / ١٩٩٨/ ص: ٢١.

التقعيد الإعرابي الرامية إلى تأصيل الحركة الإعرابية للكلمة في التركيب، اعتبار الحركات الثلاث: الضمة والفتحة والكسرة، حركات أصولاً في عملية الإعراب، إذ عليها يقوم المعنى النحوي، كما أنّ فكرة القياس شكّلت السبب المباشر في بروز المنهج المعياري الذي تميّز به تراثنا النحوي العربي، وذلك إذا ما عرفنا أنّ «المعيارية» في حقيقتها جهد فكري يهدف إلى تكييف الظاهرة الإعرابية الفرع مع أصل إعرابي قياساً أو تقديراً.

٢ - الإسناد في شكله النمطي:

الإسناد في ذهن المتكلم علاقة معنوية، إذ تشكل رمزا من رموز النظام اللغوي، والكلام تطبيق فعلي لهذه العلاقة الذهنية، لأنّ اللغة وسيلة اتصال بوجود خيارات متعددة أمام المتكلم ضمن نظام اللغة^(١)، الذي ينتمي إليه، وبحسب المواقف والدواعي لإنتاج الخطاب المرسل، والتأليف بين مختلف العناصر اللسانية المشكلة للتركيب الملفوظ يُفرض إلى تكوين ما يُسمى في الإصطلاح بالصورة اللفظية^(٢) وذلك يعني: الجملة أو التركيب الإسنادي أي: الحد الأدنى من العناصر اللسانية الحاملة لمعنى مفيد يحسن السكوت عيه، وعلى هذا الأساس قسّمت الجملة العربية إلى إسمية (ما تصدّرها اسم) وفعلية (ما ابتدئت بفعل)، أي الجملة النواة أو التوليدية^(٣)، وإذا تضمنت أي عنصر من عناصر التحويل صارت جملة تحويلية مع بقائها على الإسمية أو الفعلية بحسب التعريف السابق، أي جهة التركيب البنائي.

هذا، وللجملة التوليدية الإسمية أطر لا يسع المجال لذكرها، فقد اصطلح النحاة على تسميتها بجملة «المبتدأ والخبر» صدرها اسم تعرّي من العوامل اللفظية فكان أو لا لثان^(٤)، وهو المسند إليه، والأصل فيه أن يكون معرفة لأنّه مخبر عنه، والحكم على المجهول لا يستقيم به المعنى إلا بمسوّغ كالإبتداء بالوصف أو وقوع النكرة -الواردة مبتدأ - بعد استفهام، أو دلالتها على الدعاء^(٥)، مع وروده بأنماط: إسمياً ظاهراً، ضميراً منفصلاً، مصدرًا مصدرًا مؤوّلًا، مجرور «ربّ»، المجرور بـ«من» الزائدة، وله صورتان أيضاً: مبتدأ ذو خبر (العلم نور) والمبتدأ الوصف المستغني بمرفوعه عن الخبر مثل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم/٤٦]، كما قد يتكرر المبتدأ في الجملة الواحدة مثل قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة/٥٥].

(١) مبادئ اللسانيات/أحمد محمد قدور/ص: ٢٤٠.

(٢) علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي/محمود السمران/دار الفكر العربي/القاهرة/ط٢/١٩٩٧/ص: ١٧٠.

(٣) في التحليل اللغوي ومنهج وصفي تحليلي/خليل أحمد عمارة/مكتبة المنار/الأردن/ط١ - ١٩٨٧/ص: ١٠٥.

(٤) للمع/ابن جني/ت: حسين محمد شرف/عالم الكتب/القاهرة/ط١/١٩٧٩/ص: ١١٥.

(٥) جامع الدروس العربية/مصطفى الغلاييني/المكتبة العصرية/بيروت/ط٣٥/١٩٩٨/ص: ٢٦٢/٠٢.

كما أنّ مصطلح الابتداء في النحو العربي ينطوي على أمور لسانية عربية منها: علامة الرفع وهو حكمه الإعرابي، ومنها تصدّره للجملة وهو ما يقتضيه ترتيبه، إلا في حالات تستوجب تأخيرها، والصيغة التي يصنفه في خانة «الإسمية» والتعيين إذ لا يكون إلا معرفة أو نكرة مخصصة، والركن الثاني في الإسناد النمطي للجملة التوليدية الإسمية هو: الخبر أو المسند، أو المخبر به، ومن شروطه: وجوب رفعه، ومطابقتها للمسند إليه (المبتدأ) أفراداً وتثنية وجمعا وتذكيراً وتأنيثاً، كما أنّ الأصل فيه أن يأتي نكرة مشتقة، وجواز حذفه إن دلّ عليه دليل، ووجوب حذفه في مواضع معينة (بعد لولا... لعمرك...) وجواز تعدده مع مسند إليه واحد^(١)، كما أنّ الأصل فيه تأخره عن المبتدأ، كما يتقدم عنه جوازا أو وجوبا.

وذكر له النحاة ثلاث صور: الخبر المفرد: ما ليس بجملة أو شبه جملة - ويكون جامداً - ومشتقا، والخبر الجملة: بنوعها الإسمية والفعلية، وشبه الجملة والمقصود بها الظرف والجار والمجرور، لأنهما متعلقان بمحذوف دال على معنى الإستقرار والخلول وما أشبههما^(٢).

هذا فيما يتعلّق بركني الإسناد (مسند إليه ومسند، أو العكس) من جهة البساطة في التركيب^(٣)، الذي يعني تعلق كلمة بأخرى أي على سبيل الإسناد الذي هو أعمّ من الخبر^(٤)، وعندما يتكرر الإسناد في الجملة الواحدة يصبح التركيب الإسنادي مركبا تركيب أفراد، ويتشكل من جملتين بسيطتين بينهما علاقة دلالية وثيقة، وأما المركب من أكثر من جملتين فيكون متعدداً إذ يتشكل من عدد من الجمل التي قد تنتسج وتتعدد وتظل صحيحة من الوجهة النحوية^(٥).

ومن جهة أخرى، فإنّ قرينة الإسناد على أهميتها في عمليات التحليل النحوي، فهي علاقة قابلة للتقييد، إذ يعمل علم النحو على توجيهها وفق النمط النحوي المقصود، وذلك يتجلى في الكثير من القرائن المعنوية المصاحبة لعملية الإسناد، أو ما يسميه المحدثين العلاقات السياقية والتي تتجلى من خلال التراكيب الواردة فيها، في تلك المعاني النحوية التي تصل إلى المتلقي فيدرك من هذه المعاني النحوية الكامنة في هذه العلاقات المعاني والأفكار المجردة التي أراد المتكلم توصيلها^(٦) منها: التخصيص^(٧) وهو علاقة سياقية كبرى والذي تنفرع عنه علاقات

(١) جامع الدروس العربية/مصطفى الغلاييني/ص: ٢٦٢/٠٢.

(٢) الأصول في النحو/ابن السراج أبو بكر محمد ابن سهل/ت: عبد الحسين القتلي/مؤسسة الرسالة/بيروت - ط ١٩٩٦/٢: ص ٥٩/٠١.

(٣) مدخل إلى دراسة الجملة العربية/محمود أحمد نحلة/دار النهضة العربية/بيروت/ط - ١٩٨٨/ص: ٢٤.

(٤) شرح المفصل/ابن يعيش/ص: ٢٠/٠١.

(٥) مدخل إلى دراسة الجملة العربية/محمود أحمد نحلة/ص: ٤٥/١ أو ١٨١.

(٦) الجملة العربية/إبراهيم عبادة/منشأة المعارف/الإسكندرية/ط - ١٩٨٨/ص: ١٥.

(٧) اللغة العربية معناها ومبناها/تمام حسان/ص: ١٩٥.

أخرى، تكون قيوداً على عملية الإسناد من ذلك التعدية في الفعل، وما يستلزمه من عناصر مكملة للإسناد، التوكيد بالمصدر المشبع بمعنى الفعل، الغائية (المفعول له) تفسير الإيهام بالتمييز، الإخراج بالإستثناء، الظرفية (المفعول فيه) وغيرها كثير مما يتعلق بالإسناد في شكله النمطي النحوي.

٢ - الإسناد الإبلاغي: (صورة فنيّة):

قد يطول الحديث لو تناولنا قضية الإسناد في صدى المباحث البلاغية العربية منذ نشأة النحو العربي، ومدى ارتباط علوم البلاغة به، وسنكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى ما يلي:

- أ - الإسناد في نظرية النظم.
- ب - الإسناد في علم المعاني.
- ج - الإسناد في بعض صيغه الفنية: نماذج تطبيقية.
- أ - الإسناد في نظرية النظم:

جاءت نظرية النظم للإمام «عبد القاهر الجرجاني» كردّ فعل لما ساد عصره من الإسراف بالسجع والاهتمام باللفظ دون المعنى، إضافة إلى ما لوحظ من الإعراض عن الشعر والنحو^(١)، لأنّ البلاغة بعلومها تساعد في أداء المهام الأساسية للغة والقائمة على أساس عنصرين هما: اللفظ والمعنى، ذلك أنّ الفصاحة والبلاغة لا يمكن تحقيقها إلا بعد النظم وتركيب الكلام، ومدار ذلك يتجلى في وضعه (أي الكلام) الموضوع الذي يقتضيه علم النحو، إذ يقول بهذا الشأن: «واعلم أنّ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها...»^(٢)، ويتضح من خلال هذا القول أنّ النحو يتعلق بالمفاهيم الخاصة بالتركيب الإسنادي فيظهر فيه النحو الهيكل الأساسي (البنية المركزية) ومعنى التركيب يتجلى في الغرض، يتوخاه المتكلم في توظيفه لعبارة من العبارات، وبذلك فالنحو عنده هو صلب البلاغة^(٣).

كما يقوم النظم على أساس تعليق الكلام ببعضها البعض إذ يقول بهذا الشأن: «فمعلوم أنّ ليس النظم سوى تعليق الكلام ببعضها البعض، وجعل بعضها بسبب من بعض... والكلم

(١) خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية/أحمد شامية/ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر/١٩٩٥/ص: ١٢٧.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني/عبد القاهر الجرجاني/ت: محمد رشيد رضا/ط١/١٩٩٩/دار المعرفة/بيروت/ص: ٧٠.

(٣) التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني/صالح بلعيد/ديوان المطبوعات الجامعية/١٩٩٤/ص: ٤٣.

ثلاث: اسم وفعل وحرف»^(١)، ومن خلال تعلق الاسم بالفعل وتعلق الاسم بالاسم وتعلق الحرف بهما، شملت نظرية النظم كل أبواب النحو العربي، وما تقتضيه متطلبات السياق اللغوي والصور المختلفة الهادفة إلى إيصال أغراض المتكلم وغاياته الإبلاغية، وكل ذلك مناطه ركني الإسناد المذكورين في الصورة النحوية، لأنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند إليه^(٢).

ومن هنا نتبين نمطين من النظم القائم على التعليق الذي أصله الإسناد، فالأول نظم نمطي مجرد، تستقيم من خلاله التراكيب إستقامة نحوية يتم بها تأدية المقاصد والأغراض، وهذا هو الأصل في أي كلام، فلا يُتصور فيه نقص ولا زيادة^(٣)، أي الشكل النمطي النحوي، وأما الثاني فهو نظم فني، إذ تسمو فيه الدلالة سموًا يحدث أثره في المتلقي، أو ما يسميها مستوى المزية والفضيلة، ويتميز - إضافة إلى المهارة الأسلوبية - بالإستقامة والصحة النحوية، لأن «النظوم والأساليب الفنية لا ترقى محلقة في أجواء الفن إلا إذا استقامت حركتها أولاً في أرض النحو»^(٤).

والإسناد هو مناط الفائدة التي تعزرها الدلالة التركيبية في كلا النمطين، بأثر التعليق المشار إليه سابقاً والذي يوازي في مفهومه ما توصل إليه الباحثون المعاصرون في مجال اللسانيات، عندما أقرّوا نظرية السياق التي تقدّم على مختلف القرائن اللفظية والمعنوية كونها قيوداً مخصصة لعلاقة الإسناد، لأنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة من حيث أصواتها ومعانيها لا دخل لها في النظم.

ب - الإسناد في علم المعاني:

تقوم البلاغة العربية على أساس العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع^(٥)، والتي كانت تشكل وحدة متكاملة دونما فصل في مباحثها، حتى القرن الخامس الهجري حين ظهرت نظرية علم المعاني (نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني)، كما أسّس لنظرية علم البيان في كتابه: «أسرار البلاغة».

والنظم كما مرّ بنا يقوم على أمرين: المعنى المراد التعبير عنه، ثمّ اللفظ الذي يعبر عن هذا المعنى، وإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه فالضرورة تقتضي تغيير أو اختلاف

(١) دلائل الإعجاز/ص: ١٥.

(٢) السابق نفسه/ص: ١٨.

(٣) المعنى في البلاغة العربية/حسن طبل/دار الفكر العربي/القاهرة/د ط/١٩٩٨/ص: ١١.

(٤) المعنى في البلاغة العربية/حسن طبل/دار الفكر العربي/القاهرة/د ط/١٩٩٨/ص: ١١.

(٥) علم المعاني/عبد العزيز عتيق/دار النهضة العربية/د ط/١٩٧٤/ص: ٢٥.

اللفظ، وإن كانت مادته واحدة، وإن هناك الصورة والمعنى الذي نعبر به عن هذه الصورة^(١)، وقبل هذا كانت البلاغة تتسم بمنهج يرمي إلى عدم الفصل بين فنونها، لما في ذلك من خدمة للأدب وإمداده بأسباب القوة والجمال.

وقد عرف «السكاكي» علم المعاني بأنه: تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، أو ما يتصل بها من الإستحسان وغيره، ليحترز عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره^(٢).

وتتجلى أهمية علم المعاني وأثره في بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطنين التي تستدعيه، وكذلك المعاني المستفادة بالتضمنين، اعتماداً على مختلف القرائن المعنوية واللفظية، وتبرز - ههنا - المناسبة الكلامية أو ما يسمى بـ«المقام» والذي يتحكم بدوره في المقال ويوجهه: «فالذكي الذي تكفيه اللمحة أو الإشارة يحسن له الإيجاز، والغبي أو المكابر يجمل - عند خطابه - الإطناب في القول»^(٣).

وكان علم المعاني لتتبع ورصد هذه العلاقة التلازمية بين المقام والمقال. ولهذا العلم - علم المعاني - منهجان^(٤)، في عرض مسأله، الأول يقوم على تفصيل مواضيع الخبر والإنشاء بناء على قرينة الإسناد، إذ يجعل أصحاب هذا المنهج باباً لكل موضوع، فجاء حديثهم مفصلاً مثلاً عن: الإسناد وبيان أحوال المسند إليه، من حيث الذكر والحذف والتنكير والتعريف، والتقديم والتأخير والتخصيص، والمقتضيات البلاغية لذلك. الفعل ومتعلقاته، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب، والقصر وأنواعه وطرقه، الطلب وما يندرج تحته من أنواع وأغراض بلاغية.

وأما أصحاب المنهج الثاني فقد سلكوا نهج عبد القاهر الجرجاني، إذ جمعوا - على سبيل المثال - مواضيع: الحذف والذكر والتقديم والتأخير في موضوع واحد هو: الحذف والذكر، وتحدثوا فيه عن حذف المسند، وحذف المسند إليه، وحذف المفعول، وحذف الظرف، وهذه المواضيع كانت مفرقة على أبواب ثلاثة في المنهج الأول، ولئن بدا هذا التقسيم شكلياً لا يتجاوز إلى المضمون أو الموضوع، إلا أن المنهج الثاني يبدو أكثر ملاءمة للدراسة البيانية لأنه شامل، وقليل التفاصيل، وذلك من شأنه أن يمكن الباحث من الاعتماد عليه في تحليل النصوص والتفاعل معها وتذوق مضامينها.

(١) البلاغة فنونها وأفانها/علم المعاني/فضل حسن عباس/دار الفرقان للنشر والتوزيع/إريد/ط١/١٩٨٧/ص: ٨٧.

(٢) مفتاح الكلام/السكاكي/مطبعة التقدم العلمية/ص: ٧٠.

(٣) علم المعاني/عبد العزيز عتيق/ص: ٣٩.

(٤) يُنظر: البلاغة فنونها وأفانها/فضل حسن عباس/ص: ٩٧/و: علم المعاني/عبد العزيز عتيق/ص: ٢٩ - ٣٠.

ج - الإسناد في بعض صيغته الفنية:

(تطبيقات من سورة الأنفال)

لا ريب أن الصورة البيانية التي هي مناط بحث علم البيان، لا تتأتى وظائفها من خلال تلك الدلالة الوضعية، ذلك أن استخدام الكلم في الصور المجازية - مثلا - هو استخدام خاص تتحرف فيه الكلمة عن أصل وضعها لتتضمن دلالات جديدة يكون لها أثرها في المعنى أو الغرض المدلول عليه بها^(١)، ومن هنا فإن الأثر الفني لتلك الصورة لا يمكن استجلاؤه أو الوقوف عليه، إلا من خلال مقارنة واضحة المعالم بين صورتين: أي: صورة بدلالة منحرفة عن الأصل المتواضع عليه، مع أخرى بدلالة وضعيه، وحينئذ يتضح الفارق بين الداليتين، أي: بين الحقيقة والمجاز، والمراد بالأولى: كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع الواضع^(٢)، في حين أن المجاز هو استعمال اللفظ على خلاف حقيقته، لأنها المرجع وهو منطلقه، وإذا كان هذا الانحراف الدلالي قد يقع في أي باب من الأبواب النحوية، فإن الأهم - ههنا - هو الإسناد، وأثر هذا الانحراف في ركنيه، ذلك أن من هذا الانحراف ما قرينته وأثره من اللغة مثل الاستعارة والمجاز المرسل، ومنه ما يرجع إلى العقل لا إلى اللغة ومثاله المجاز العقلي.

ونعرض - فيما يلي - من خلال الإسناد في صيغته الفنية إلى معيارين بلاغيين، على التوالي مع نماذج تطبيقية من أي الذكر الحكيم، والأول:

* معيار الانحراف الدلالي:

(المجاز) اللغة كائن حيّ يحب التعامل معه بتفاعل تام من خلال الغوص في مضامين النصوص، واستكناه مدلولات تراكيبها المختلفة، لأنها كثيراً ما تفوق الجوانب الفكرية والموضوعية في الكلام الملفوظ أو المكتوب، إلى جوانب أخرى تحمل الكثير من الشحنة الإنفعالية في صيغها ومشتقاتها، وتناغم أصواتها وإيقاعها^(٣)، ومن هنا تتباين أساليب التعبير قوة وضعفا وتأثيرا ونحاول من خلال بعض آيات القرآن الكريم، أن نقف على بعض الصور البيانية لأسلوب القرآن الكريم، والبدائية مع معيار الإنحراف الدلالي: يقول جلّت قدرته: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال/٢٤].

(١) المعنى في البلاغة العربية/حسن طبل/ص: ٨٦.

(٢) أسرار البلاغة في علم البيان/عبد البيان/القاهر الجرجاني/ت: محمد رشيد رضا/دار المعرفة/بيروت - د ط - ١٩٩٤/ص: ٣٠.

(٣) الإبلاغية في البلاغة العربية/سمير أبو حمدان/منشورات عويدات الدولية/بيروت/١ ط - ١٩٩١/ص: ٣٧.

فعل «حال، يحول» بين الشيء وغيره بمعنى «منع»^(١)، وإسناد الحول، ويقال: الحُولُ^(٢)، لذات الله تعالى إسناد مجازي عقلي بدليل القرينة اللفظية المانعة بين المرء وقلبه، إذ شبّهت الآية الكريمة قدرة الله تعالى المطلقة وتمكنه من قلوب عباده وتصرفها، كما يشاء أن يحول بين الشيء والشيء، وهي دلالة فنية في قمة البلاغة تبين أن الله تعالى يهدي من يشاء، ويُضل من يشاء، وذلك بتثبيت قلوب المؤمنين وتيسير الإيمان لهم، لأنّ المقصود بلفظ «المرء» في الآية الكريمة عمله وتصرفاته الجسمانية^(٣)، أما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجِزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأَنْفَال/١١].

فقوله جلت قدرته: «ليربط على قلوبكم» نجد من خلال هذا المركب الإسنادي الفعلي أنّ المسند إليه هو المولى عزّ وجلّ، والمسند هو فعل «يربط» المتعدي بحرف الجر، ويتضح أنّ الإسناد هنا مجازي، لأنّ الفاعل في الإسناد النمطي النحوي ضمير مستتر يعود على ذات الله تعالى، وبقريته الربط على القلوب بالصبر والتقوية^(٤)، ووالواقع أنّ الربط بين القلوب يعني التأليف بينها، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي المشابهة في بيان قدرة الله تعالى على جمع المؤمنين تحت راية الإسلام الموحّدة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأَنْفَال/٤٢]، يلاحظ في الآية الكريمة استعارة الهلاك للكفر، والحياة للإيمان، لأنّ الهلاك هو الموت والإضمحلال، واستعير لذهاب ذات الشوكة^(٥)، أي القوة والجبروت، كما أنّ الحياة مستعارة لنهوض الأمة وقوتها وبلوغها أعلى مراتب الرقي، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، ولأنّ حقيقة الهلاك هي الموت والكفر بالله قرينها.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأَنْفَال/١٧]، وقوله جلت قدرته: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأَنْفَال/٣٠].

ولنتوقف عند الفعلين: «قتل» و«رمى»، من الآية الكريمة، إذ يتّضح أنّ «القتل» و«الرمي» المسندين إلى ذات الله عزّ وجلّ مختلفان عن القتل المسند لفئة المسلمين والرمي المسند للنبي - صلى الله عليه وسلم - والأهم هنا أننا نجد كلاً من الفعلين المذكورين:

(١) كتاب الأفعال لابن القوطية/ت: علي فودة/مكتبة الخامجي القاهرة/ط١ - ١٩٩٣/ص: ٤٤.

(٢) تفسير التحرير والتتوير/محمد الطاهر ابن عاشور/الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب/الجزائر/١٩٨٤/ص: ٣١٤+٣١٥.

(٣) السابق نفسه.

(٤) كتاب الأفعال/ابن القوطية/ص: ٢٥٣.

(٥) التحرير والتتوير/ابن عاشور/ص: ٢١+٢٠.

«قتل، رمى» المسندين لله عزّ وجلّ قد شاكلاً الفعلين: «لم تقتلوهم» و«ما رميت» المنفيين عن فاعليهما، وهذا ما يُعرف في الدراسات البلاغية بالمشاكلة، فقد لا تكون من الحقيقة وقد لا تكون من المجاز^(١)، وكونها غير حقيقية مردّه أنّ اللفظ لم يُستعمل فيما وُضع له أصلاً أمّا كونها غير مجاز فمردّه إلى عدم ذكر العلاقة المعتبرة في المجاز حيث ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابها.

وأما الآية الثانية فنأخذ من ثناياها فعل «مكر» والمسند إلى ذات الله من قبيل المشاكلة أيضاً، والمكر ضدّ النفع، ولذلك سمّى الله تعالى ما توعدّ به الكفار مكرّاً في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وذلك أنّ الماكر ينزل المكروه بالممكور به، من حيث لا يعلم، فلما كان هذا سبيل ما توعدّهم به من العذاب سمّاه مكرّاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال/٢٦].

ما يلاحظ من خلال الآية الكريمة أنّ إسناد فعل «يتخطفكم» إلى لفظ «الناس» إسناد مجازي، لأنّ هذه الكلمة عامة تشمل الكثير على غير تخصيص في حين أنّ المقصود بالآية، أو بالفعل المذكور تحديداً هم «المشركون»، وهذا على جهة المجاز المرسل ذي العلاقة الكلية، في حين رامت الآية الإشارة إلى العلاقة أو الدلالة الجزئية وأطلقت الفعل على العموم، وهذا النوع من المجاز لا يخلو من مزايا فنية وبلاغية، ففي فعل «يتخطف» إحياء بقوة المشركين وبطشهم بالمؤمنين في بداية الدعوة الإسلامية، لكثرة عددهم مقارنة بعدد المسلمين آنذاك، وما كان ف«يهم من وهن وخوف واستضعاف، إضافة إلى بعض معاني الفعل المذكور التي منها: الأخذ بشدة وسرعة.

* معيار التخيير النحوي:

كثيرة هي الأبواب التي يمكن أن تنضوي تحت هذا العنوان، وللمقام نورد شيئاً من ذلك، من خلال العناصر التالية:

— حذف المسند إليه (الفاعل): وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال/٠٢]. والملاحظ في الآية حذف فاعلي: «ذكر» و«تليت»، فالأصل أن يكون لفظ الجلالة مفعولاً به، غير أنه لما كان ذكره سبحانه وتعالى أجلاً وأسمى حذف الفاعل الحقيقي، وبُني الفعل للمفعول أو المجهول، وذلك لبيان معنى الإيمان الحق، بإسناد الذكر للفظ الجلالة على النيابة، ومن السمات الفنية لهذا الحذف: الإيجاز في الجملة المفترضة: إذا ذكر أحد منهم الله، وهذا

(١) العلاقات الدلالية والتراث البلاغي، عبد الواحد حسن الشيخ/مكتبة الإشعاع العلمية - مصر/ط١ - ١٩٩٩/ص: ١٦٠.

الإيجاز له هو الآخر أثره في الإيقاع^(١) الصوتي للجملة الشرطية: «إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلْتَ قُلُوبَهُمْ»، وجملة جواب الشرط تتناسب إيقاعيا بعد التناسب الدلالي مع جملة الشرط، التي حُذِفَ فيها المسند إليه، وهي سمة من سمات النص القرآني، لعل من فوائدها تسهيل حفظ أي الذكر الحكيم.

والوضع نفسه في الجملة الشرطية المعطوفة: «وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا»، ففي إسناد «التلاوة» للآيات الكريمة يُحذف الفاعل وينوب عنه المفعول، لعدم تعلق الفعل بمعرفة الفاعل إذ يكفي ذكر «الآيات» لتطمئن القلوب بها دونما حاجة إلى معرفة الذي يتلوها إضافة إلى السمات الإيقاعية وتآلف مقاطع العبارات التي تتبع من ثنايا الجملتين الشرطيتين، وفي باب حذف المسند (الخبر) قوله تعالى:

- * ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال/١٣].
- * ﴿ذَلِكَ فِدْوَقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الأنفال/١٤].
- * ﴿ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال/١٨].
- * ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال/٥١].

وبتتبع العناصر النحوية للآيات الكريمة، نلاحظ حذف المسند (الخبر) والذي يمكن تقديره في الآية الأولى بـ: «ذلك العقاب» وفي الثانية بـ: «ذلك العذاب»، وفي الآية الثالثة: «ذلكم الذي حدث»، ولهذا الحذف دلالات إضافية ومزية أسلوبية لا ريب في ذلك، ومما أمكن الوصول إليه في هذا الصدد أن الخبر المحذوف في الآيات الكريمة هو عاقبة المشركين وما لحقهم من ذل وهوان بعد انهزامهم أمام المؤمنين في معركة بدر الشهيرة^(٢)، ولما كان الجزاء حاصلًا لا شك فيه وواقعا ملموسا، عدل عن التصريح به لدلالة السياق عليه، ولذلك أثره البين في خفة الأسلوب القرآني ورشاقته وتأثيره في نفس المتلقي بما يثيره فيه من نشاط عقلي، سببه مزايا الحذف.

وفي باب التقديم، نسجل الآية الكريمة التالية: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا لِإِفْتِنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ المَصِيرُ﴾ [الأنفال/١٦].

فالجملة المستأنفة «مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ» مستقلة بمعناها، مركب إسنادي من مبتدأ وخبر، لم يحتفظ الأول برتبته الإعتيادية أي التقديم، فقدّم الخبر، والأصل أن لفظ «جهنم» هو المسند إليه بدليل الإسمية والثبوت، ولما كان المقام - ههنا - يتطلب التأكيد على طبيعة جزاء الكافرين، قدّم الخبر «مَأْوَى» على أساس الإبتداء، رغم أنه وصف بوزن «مَفْعَل» اسم مكان مشتق من

(١) البيان في روائع القرآن/تمام حسان/عالم الكتب/ط١/١٩٩٣/القاهرة/ص: ٢٧٦/٢٥٧.

(٢) ينظر: التحرير والتوير/محد الطاهر بن عاشور/ص٢٤٥/٠٩.

«أوى»، ويظهر أنه تقديم على بنية التأخير، ولعل أهمية التقديم توحى بتحويل الموقف ترهيباً للمشركين.

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال/٤١]، فتقديم الجار والمجرور (شبه جملة) الواقعين خبراً (مسنداً) دليل على أنّ الغنائم وغيرها من الممتلكات ملك له عز وجل.

وقوله جلت قدرته: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال/٥٤].

الخبر شبه جملة من «لهم» تقدّم على المسند إليه «درجات»، الوارد نكرة بمسوغ شبه الجملة المذكورة، إذ جاءت اللام الجارة لمعنى الملكية (الملك) فكانت اللمسة البلاغية وهنا تتجلى في تقديم الجار والمجرور بشرى للمؤمنين بالدرجات العلى عند ربهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال/٦٢].

في هذا التركيب الإسنادي الإسمي تقديم ليس على نية التأخير لأنّ لفظ الجلالة «الله» هو الأصل في الإبتداء، وأما تقديم الخبر «حسبك» فتتجلى مزيته البلاغية في حصر الكفاية في ذات الله جلّ شأنه، والإيحاء بأنه تعالى وحده القادر على نصر نبيّه وعباده المؤمنين على المشركين.

الخاتمة:

لقد تبين من خلال هذه السطور أنّ الإسناد، في الدرس النحوي العربي مناط وأساس أشكال التعبير وبالتحديد في نمطيه: النحوي والبلاغي، ذلك أنّ الحديث عن هذه الظاهرة اللغوية يشير إلى نشاط إستقرائي واسع للوصول إلى القانون العلمي لتفسير ما يبدو معقداً ومختلفاً، تأصيلاً للظاهرة النحوية، ومن هنا كان الدرس النحوي العربي درساً متخصصاً عدّه النحاة النواة الأولى لكل كلام، وأصل لكل فرع، وحذا حذوهم اللغويون المحدثون في قضايا التأصيل وما تستدعيه الدراسة الوصفية للغة، وبذلك كان تقسيمهم للجملة العربية - باعتبار الإسناد - إلى جملة إسنادية وغير إسنادية، والأمر لا يعدو أن يكون استثناء خاصاً من حكم عام، بالنظر إلى الواقع اللغوي الذي يفرض الجملة الإسنادية منطلقاً لأنماط التعبير، وذلك اعتماداً على نمطي الإسناد في التركيب الجملي (الجملة الإسمية والفعلية) وتتوسع بمختلف الأبواب النحوية فيما سمّي بالتقييد للعلاقة الإسنادية المفتوحة، من جهة التخصيص والنسبة وغيرها...

واهتمام البلاغيين بهذه الظاهرة التركيبية (الإسناد)، أنجب - من بين ما أنجب - نظرية النظم التي تعتبر بحق فتحة في مجال الدراسات البلاغية والأسلوبية، فغداً معروفاً أنّ نظم الكلام إنما يتأتى عن طريق تعلق الكلم ببعضه وفق ما يقتضيه علم النحو، وترتيب الكلام في نفس صاحبه، وليست المزية في اللفظة ذاتها، واتضح جلياً أنّ الإسناد هو مناط الفائدة سواء أكان ذلك في شكله النمطي أم البلاغي وما يحمله من صور فنية لأنه أساس الهيئة التركيبية النحوية.

وبإشارة وجيزة إلى علم المعاني الذي انبثق عن نظرية النظم، وقفنا على منهجين في تناول مواضيعه، باختلاف شكلي دون المساس بالمضمون أو المواضيع، وعرضنا إلى المنهجين في تبسيط مباحث هذا العلم مما بين أن نهج عبد القاهر الجرجاني في التعامل مع هذا الموضوع أجدى وأنفع، لأنه — إضافة إلى الإيجاز والإختصار — كفيل بتنشيط الذاكرة وإيقاظ الشعور، وتمكين الباحث من الغوص في النصوص الرفيعة وتدوقها.

وانطلاقاً مما سبق اعتمدنا على عنصرين أساسيين في عرض بعض الصور البيانية تبيانا لبعض أنماط الإسناد البلاغي، من خلال آيات من القرآن الكريم من سورة الأنفال، وهما:

معيان الانحراف الدلالي (المجاز) ومعيان التخيّر النحوي (بعض أشكال التقديم والتأخير).

وأخيراً فإنّ درس النحوي العربي في بداياته يشكّل مرحلة حاسمة في مجال الدراسات اللغوية، إذ قام على البحث في الهيئة التركيبية المباشرة التي تُعدّ أساس التعبير اللغوي ومنها تبرز الصورة الفنية للإسناد والتي لا تأتي من فراغ بل هي بلا شك سليمة النمط الأصلي التركيبي، الذي تحمله الدلالة النحوية، ومن هنا اتضح جلياً أنّ لا إبداع في العربية ما لم يقم بالأساس على ما يقتضيه علم النحو أو الصحة النحوية، لأنّ الكلام مهارة أسلوبية يتخذ من العدول المبرر عن الأصل أداة إبداعية، واللغة كونها نظاماً نمطياً تتيح للمتكلم نوعاً من التصرف المنظم للتعبير عن موقف ما، وهذا ما تؤكدّه لا محدودية الأنماط الكلامية، كما أنّ النحو والبلاغة العربيان علمان قائمان على مبدأ التخصص والتركيّز على مستويين تعبيريين متميّزين، فالأول يختص بأصول الكلام، والثاني في مجال استعمال اللغة فردياً، وخصائص هذا الاستعمال في الواقع اللغوي.

قائمة المصادر والمراجع:

- * القرآن الكريم برواية حفص/دار ابن كثير للطباعة والنشر/ط/١/٢٠٠٤/دمشق.
- ١ — الإبلاغية في البلاغة العربية/سمير أبو حمدان/منشورات عويدات الدولية، بيروت/ط/١/١٩٩١.
 - ٢ — أسرار البلاغة في علم البيان/عبد القاهر الجرجاني/ت: محمد رشيد رضا/دار المعرفة/بيروت/ط/١/١٩٩٤.
 - ٣ — الأصول في النحو/ابن السراج أبو بكر محمد بن سهيل/ت: عبد الحسين القتلي/مؤسسة الرسالة/بيروت، ط ٢ — ١٩٩٦.
 - ٤ — الإقتراح في علم أصول النحو/السيوطي/دار الكتب العلمية/بيروت، ١٩٩٨.
 - ٥ — البلاغة فنونها وأفانها، علم المعاني/فضل حسن عباس/دار الفروقان للنشر والتوزيع، إربد/ط/١، ١٩٨٧.
 - ٦ — البيان في روائع القرآن/تمام حسان/عالم الكتب/ط/١ — ١٩٩٣/القاهرة.
 - ٧ — التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني/صالح بلعيد، ديوان المطبوعات الجامعية/الجزائر. ١٩٩٤.
 - ٨ — تفسير التحرير والتوير/محمد الطاهر بن عاشور/الدار التونسية للنشر/المؤسسة الوطنية للكتاب/الجزائر، ط/١. ١٩٨٤.

- ٩ - جامع الدروس العربية/مصطفى الغلاييني/المكتبة العصرية/بيروت/ط٣٥، ١٩٩٨.
- ١٠ - الجملة العربية/إبراهيم عبادة/منشأة المعارف/الإسكندرية/ط١، ١٩٨٨.
- ١١ - خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية/أحمد شامية/ديوان المطبوعات الجامعية/الجزائر.
- ١٢ - دلائل الإعجاز في علم المعاني/عبد القاهر الجرجاني/ت: محمد رشيد رضا/ط١ - ١٩٩٩/دار المعرفة، بيروت.
- ١٣ - شرح ألفية ابن مالك/ابن الناظم/ت: عبد الحميد السيد محمد/دار الجيل/بيروت/ط١، ١٩٩٨.
- ١٤ - شرح المفصل/ابن يعيش موفق الدين يعيش ابن علي/مكتبة المتنبي/القاهرة/ط١/ت.
- ١٥ - ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي/طاهر سليمان حمودة/الإسكندرية/ط١ - ١٩٩٩.
- ١٦ - العلاقات الدلالية والتراث البلاغي/عبد الواحد حسن الشيخ/مكتبة الإشعاع العلمية/مصر/ط١ - ١٩٩٩.
- ١٧ - العلاقة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث/محمد حماسة عبد اللطيف/دار الفكر العربي/القاهرة/ط١/ت.
- ١٨ - علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي/محمد السعران/دار الفكر العربي/القاهرة/ط٢ - ١٩٩٧.
- ١٩ - علم المعاني/عبد العزيز عتيق/دار النهضة العربية/بيروت/ط١ - ١٩٧٤.
- ٢٠ - في أدلة النحو/عفاف حسانين/المكتبة الأكاديمية القاهرة/ط١ - ١٩٩٦.
- ٢١ - في التحليل اللغوي: منهج وصفي تحليلي/خليل أحمد عمارة/مكتبة المنار/الأردن، ط١ - ١٩٨٧.
- ٢٢ - الكتاب/سيبويه/ت: عبد السلام هارون/دار الجيل/ط١/١٩٩١.
- ٢٣ - كتاب الأفعال لابن القوطية/ت: علي فودة/مكتبة الخانجي/القاهرة/ط١ - ١٩٩٣.
- ٢٤ - اللغة العربية معناها ومبناها/تمام حسان/عالم الكتب/ط٣/١٩٩٨.
- ٢٥ - للمع/ابن جني/ت: حسين محمد شرف/عالم الكتب/القاهرة/ط١/١٩٧٩.
- ٢٦ - مباحث في اللسانيات/أحمد حساني/ديوان المطبوعات الجامعية/الجزائر/١٩٩٩.
- ٢٧ - مبادئ اللسانيات/أحمد محمد قدور/دار الفكر/دمشق/دار الفكر المعاصر/بيروت/ط١/١٩٩٦.
- ٢٨ - مدخل إلى دراسة الجملة العربية/محمود أحمد نحلة/دار النهضة العربية/بيروت/ط١، ١٩٨٨.
- ٢٩ - المعنى في البلاغة/حسن طبل/دار الفكر العربي/القاهرة/ط١ - ١٩٩٨.
- ٣٠ - مفتاح العلوم/السكاكي/مطبعة التقدم العلمية/ط١ - ت.

/ /